(٦٤)

"انتحار"

همت بعبور المزلقان ولكن القطار أطلق صافرته من بعيد معلنًا عن قدومه السريع كى يحترس الجميع فيتوقفوا عن العبور مفسحين له الطريق. وبالفعل تراجعت للوراء قليلاً مبعدة جسدها ورأسها عن مشهد القطار المخترق لكل ما سيواجهه. وبينما كانت تديررأسها للأمام، إذا بأصوات صارخة من حولها لم تفهمها، وحركات غير عادية للأشخاص المجاورين لها، وكأنهم هبوا جميعًا مرة واحدة لعبور المزلقان كما لو كان هناك مغناطيس ينجذبون إليه بلا إرادة أو وعى.

تقدمت للأمام مع من تقدم وحاولت أن تتفهم كلمات الناس المتداخلة مع بعضها البعض، فإذا بها تسمعهم يقولون : "لقد ألقى بنفسه أمام القطار ليدهسه!" ... لم تستوعب ما سمعته حولها فى بادئ الأمر، إذ أنها لم تشعر إلا وجسدها ينتفض انتفاضة شلت حركتها وأوقفت عقلها عن التفكير. وقبل أن يصيبها الغثيان فور أن بدأت تفهم ما حدث حولها، بادرت بالسير للأمام للابتعاد عن مشهد القتيل الذى دهسه القطار المسرع رغبة منها فى عدم رؤية ما آلت إليه جثته من تمزيق لأوصالها وتقطيع لأجزائها، ولكنها وجدت بجوار قدميها يده وقد انفصلت عن ذراعه بل وعن جسده كله وملقاة أمامها مدرجة

فى دمائها، فكاد أن يُغمَى عليها لتسقط بجوار القتيل، ولكنها حاولت أن تتماسك لتعود لمنزلها.

وطوال طريقها للمنزل لم تستطع أن تمنع عينيها من البكاء، أو أن توقف رعشة جسدها الذى ألزمته أن يقاوم سقوطه على الأرض لحين وصولها لمنزلها. ومأ أن طرقت الباب الذى فُتِح لها لتدخل شقتها، حتى دخلت فى نوبة بكاء حادة وهى تقص ما حدث على والديها. لم تكن تصدق ما حدث أمامها حتى وهى ترويه بلسانها على أنه واقع لا خيال. لقد سبق لها بالفعل أن شاهدت حوادث انتحار فى الأفلام السينمائية، ولكنها لم تكن تتخيل أنها سترى حادثة انتحار حقيقية بلا أى تمثيل.

نعم .. لقد انتحر ذلك الشخص الذى رأت كفه مدرجًا فى دمائه على المزلقان ... لقد ألقى السيجارة من يده واتجه مسرعًا ليلقى بنفسه أمام القطار ليدهسه وفقًا لما رواه شهود العيان حولها... لقد تخلص من حياته بمحض إرادته، ومع سبق الإصرار والترصد ... لقد فعل ما فكر فيه كثيرون غيره والذى خطر على بالها هى أيضًا عدة مرات وأقدمت عليه بطريقة صبيانية ذات مرة وفشلت ليظل ذلك الخاطر يراودها من حينٍ لآخر كلما ضاقت بها الدنيا بما رحبت، وضاق صدرها بما يحمله على عاتقه من ضيق وضجر.

كان مشهد حادثة الانتحار التى وقعت أمامها هى النذير ربما الأخير لها لتتخذ قرارها بألا تهرب هى الأخرى من الحياة، بل عليها مواجهتها بشجاعة

وصمود متحدية كل الصعاب ومتفائلة بما هو خير مما هى فيه، ولمَ لا؟! وقد أصبح لديها مع الوقت أملٌ فى الصعود، وتوَلد بداخلها رجاءٌ فى اللقاء، واكتشفت أن وجودها فى الحياة ليس عبثًا أو هباءً، بل لعله بداية تكريم لها ومرحلة اختبار لا مفر منها لإثبات مدى جدارتها بالصعود لعالم الخلود الذى كان لابد أن تستعد له قبل الوصول إليه حتى تكون قمينة للعيش فيه والتمتع به. نعم لقد قررت ألا تلجأ للهروب باعتباره الحل الأسهل لأية مشكلة والوسيلة المريحة للابتعاد عنها وعدم اقتحامها. فالهروب هو قرار مبكر بالفشل، وإحجام متعمد عن مجرد المحاولة، بينما الحياة هى فرصة يغتنمها من يدرك قيمتها، ويفرط فيها من يعجز عن مجرد التفكير فى الحكمة منها.

وكيف نزعم عدم تجدد الحياة مع بداية كل يوم جديد تشرق فيه الشمس كل صباح؟! وكيف يمكن لنا ادعاء تأكدنا من عدم وجود شيء اسمه "الأمل"؟! برغم تعاقب الليل والنهار فى كل يوم وليلة ليشهدان على تجدد الأمل! ... الأمل فى تغيير الأحوال أو تبدلها أو تحولها ... والأمل فيما بعد الحياة التى ستنتهى حتمًا بالموت.

إن هذا الذى أنهى حياته بنفسه اكتفى من الحياة بما رآه فيها من صعاب وفشل وكرب وعجز، ولم ينشغل بذكر من هو قادر على أن يبدل صعابها وفشلها وضيقها وكربها بسعادة لا تنتهى، وبهجة لا حدود لها، وسرور لا ينقطع، ونعيم لا ينفد .. وكيف لا يقدر على ذلك واهب الحياة وخالق الإنسان .. والذى بيده ملكوت كل شيء؟!